الدرس الثالث

تسابق وتنافس

تسارع وتنافس وتسابق في السير والعمل على هذا الطريق، ونفهم هذا الدرس من الكيفية التي قطع فيها هذا الداعية تلك المسافة الطويلة التي يبينها قوله تعالى:(يسعى) وشتّان شتّان بين السعي والمشي!! وبين القوّة والضعف!! وبين الحرص والإهمال!!

وعلى الدعاة في هذا السياق أن يتأملوا كثيراً ذاك النداء الربّاني الموجه إلى سيدنا يحيى عليه السلام: ﴿يا يحيى خذ الكتاب بقوة﴾ ويعتبره نداءً خاصاً موجهاً إليه، بأن ينهض بقوة، ويحمل هذا الكتاب بكل ما فيه من أوامر ونواه ونصائح وتوجيهات بعزم وقوة، لا إفراط ولا تفريط!!

وما هو بداعية أبداً من بدت عليه عوامل اليأس والضعف، ومظاهر التقهقر والتقاعس. مهما ادلهمت من

حوله الخطوب، واحلولكت الليالي، وانفض الأخوة والأعوان : «والله لو لم أجد غير الذرّ لجالدتهم به..».

نعم فكيف يتسنى لضعيف هزيل، يائس بائس مهزوم أن يحمل دعوة أشفقت السماوات والأرض والجبال من حملها؟! وكيف له أن يسعى لقيادة البشرية وأستاذية الإنسانية؟! إن لم يكن أمّة في حد ذاته!! وقوة حتى في حالة ضعفه!!

ورحم اللّه داعية أراهم من نفسه قوة ومتانة وصلابة!! متحاملاً على جراحاته ومخفياً آلامه وأحزانه وآهاته!! منتصراً على ذلك كله بنفس لا تملّ ولا تكلّ في طريق الدعوة إلى الله تبارك وتعالى!! وروح تستروح الآهات وتستعذب الجراحات!!

فها هو رسول الله صلى الله عليه وسلم يخاطب صحابته الكرام، وهم يسعون أداءً لمناسك العمرة، بعد سفر طويل شاق، وقد بدت عليهم آثار الإرهاق والتعب، فشقّ على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرى المشركون المسلمين في حالة ضعف وإرهاق فصاح بهم قائلاً: «رحم الله امرءاً أراهم اليوم من نفسه قوة»!!

ويقول الله تبارك وتعالى: ﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء فخذها بقوة﴾ الأعراف ١٤٥، والإمام ابن القيم الجوزية رحمه الله يبين المقصود من هذا ويوضحه بقوله: «أي بجد واجتهاد وعزم، لا كمن يأخذ ما أمر به بتردد وفتور.. و(العزم) صدق الإرادة واستجماعها، و(الجد) صدق العمل وبذل الجهد فيه».

وما أحكم قول النبي صلى الله عليه وسلم: (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف...) لأن طبيعة هذا الدين، التي قال الله تعالى عنها: ﴿إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾ تحتاج لكل أنواع القوة، المادية منها والمعنوية...قوة في البدن؛ لأن تكاليف الدين تحتاجها من صلاة وصوم وحج وجهاد في سبيل الله... وقوة في العقيدة والإيمان.. قوة في الالتزام والثبات قوة في البذل والعطاء.. قوة في التضحية والفداء.. ومجمل ذلك قوة النفس والروح بتشربها كل هذه المعاني العظيمة.. حتى يتسنى بعد ذلك للداعية أن يخوض ميدان المسارعة والمنافسة... دونما تردد أو فتور أو تقاعس.

***

ولقد حرص الله تبارك وتعالى على إذكاء روح التسارع والتنافس عند المؤمنين في كثير من آيات الكتاب

الحكيم يقول الله تعالى: ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنّة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين﴾ آل عمران ١٣٣، ويقول تعالى: ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنّة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا باللّه ورسله...﴾ الحديد ٢١. ويقول تعالى: ﴿ولكل وجهةٌ هو موليها فاستبقوا الخيرات أين ما تكونوا يأتِ بكم اللّه جميعاً إن اللّه على كل شيء قدير﴾ البقرة ١٤٨ ويقول الله تعالى في معرض حديثه عمّا أعده للأبرار من نعيم مقيم معقباً: ﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾ المطففين ٢٦.

ومن ناحية أخرى حين تحدث الله تبارك وتعالى عن الرزق والأرض قال: ﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾ الملك ١٥، فقوله (فامشوا) يحمل معاني الهدوء والطمأنينة والسكينة.. دونما صراع أو تسارع أو تنافس، أو حرص وخوف!! وحين تحدث عن الآخرة قال تعالى: ﴿ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً﴾ الاسراء ١٩.

ولقد أثنى الله تبارك وتعالى على السابقين الأولين، الذين يسارعون في فعل الخيرات، فقال تعالى: ﴿والسابقون

السابقون، أولئك المقربون، في جنّات النعيم ثُلّةٌ من الأولين. وقليل من الآخرين على سرر موضونة. متكئين عليها متقابلين. يطوف عليهم ولدان مخلدون، بأكواب وأباريق وكأس من معين. ولا يُصدّعون عنها ولا ينزفون. وفاكهة مما يتخيرون. ولحم طير مما يشتهون. وحورٌ عين. كأمثال اللؤلؤ المكنون. جزاء بما كانوا يعملون. ولا يسمعون فيه لغواً ولا تأثيماً. إلا قيلاً سلاماً سلاماً﴾ الواقعة ١٠-٢٦.

ولقد ذكر الله تعالى في هذه السورة الكريمة أصحاب الميمنة وأصحاب المشئمة أولاً، ولكن عند ذكر الجزاء فقد قدم الحديث عن جزاء السابقين السابقين. وفي تكرار قوله (السابقون السابقون) فيه ما فيه من التأكيد على تكريم هؤلاء .... وله ما لَهُ من الوقع والتأثير في النفس المؤمنة.... التي تأنس بهذا... وتستشعر تلك المكانة العالية التي أعدت لهؤلاء.. ويكفيهم أنهم هم المقربون!!

والله تبارك وتعالى يقول مخاطباً صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم حسب سابقية اسلامهم وجهادهم في سبيل الله: ﴿لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلاً وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير﴾ الحديد ١٠.

وفي موضع آخر يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إنّ الذين هم من خشية ربهم مشفقون. والذين هم بآيات ربهم يؤمنون. والذين هم بربهم لا يشركون. والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون﴾ ما بهؤلاء يا رب؟! ومن هم؟! ﴿أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون﴾ المؤمنون ٦١.

وفي موطن آخر يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل العظيم﴾ فاطر ٣٢.

وبنظرة سريعة في هذه الآيات الكريمات نرى أن الذين يسارعون ويتنافسون في فعل الخيرات هم:

المتقون...

الذين آمنوا بالله وآياته ورسله..

المشفقون من خشية ربهم...

أصحاب القلوب الوجلة...

المؤمنون بالرجوع إلى الله تعالى..

الذين لا يشركون بالله..

وفي هذا دلالة واضحة على أن هولاء هم وحدهم الذين يخوضون ميدان المسارعة والمنافسة في فعل الخيرات، والدعوة إلى الله تبارك وتعالى!! وغيرهم يغط في نوم عميق.... عميق!!

***

وكذلك حرص رسول الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم على أن يتربى صحابته الكرام، والمؤمنون من بعد على معاني المسارعة والمنافسة .. فها هو صلى الله عليه وسلم يسأل عمر بن الخطاب على مسمع من أبي بكر رضي الله عنهما المتسارعين المتنافسين في فعل الخيرات ومشهد من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم. يا عمر ما أبقيت لأهلك؟ فيقول عمر– وقد وضع بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم صرّة من المال–: يا رسول الله لقد أبقيت لهم نصف المال وتصدقت بالنصف الآخر. ثم يلتفت صلى الله عليه وسلم لأبي بكر ويقول: وأنت يا أبا بكر: ما أبقيت لهم ؟! فيقول –وهو يضع بين يدي قائده صرة من المال–: أبقيت لهم اللّهَ ورسوله.. فأيقن عندها عمر بسبق وفضل أبي بكر رضي الله عنهما!!

وها هو صلى الله عليه وسلم : يثني على ذاك الصحابي الجليل الذي حمل صرة كبيرة فيها ما فيها من الطعام والملابس ووضعها بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، استجابة لطلبه في التصدق لقوم فقراء من المسلمين، ساء رسولَ الله صلى الله عليه وسلم حالُهم.. فأخذ الصحابة بعد ذلك في البذل والعطاء والتصدق... حتى تجمع بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم الكثير الكثير من الطعام والملابس... فتهلل لذلك وجه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، فيمم وجهه الكريم نحو ذلك الصحابي المتبرع الأول السابق في هذا الخير.. قائلاً : (من سنّ سنّة فله أجرها وأجر من عمل بها).

وها هو صلى الله عليه وسلم يشهد صراعاً بين شابين صغيرين متنافسين على المشاركة في الجهاد في سبيل الله تعالى، وذلك بعد أن اجاز النبي صلى الله عليه وسلم أحدهما لمهارته في الرمي ومنع الآخر... فاحتج الآخر بأنه يصرعه، فأذن لهما صلى الله عليه وسلم بالمصارعة، فصرعه، فأجازهما صلى الله عليه وسلم... وأذن لهما بالمشاركة في الجهاد!!

ولك أخي الداعية ان تقلّب سجل حياة الصحابة والتابعين لهم من السلف الصالح رضوان الله تعالى عليهم... لترى أنها حياة حافلة بالأمثلة الرائعة في ساح التنافس والتسارع والتسابق في كل ميادين الخير... من بذل ... وتضحية... وإيثار... وشجاعة... وكرم... وإقدام... وحلم... ودعوة إلى الله تعالى... وجهاد في سبيل الله..

وإياك أن تغفل عمّا أراد غرسه رسول الله صلى الله عليه وسلم في النفوس، حين خاطبنا بقوله: (بادروا بالأعمال الصالحة فستكون فتن كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا)، رواه مسلم.

وقوله صلى الله عليه وسلم: (بادروا بالأعمال سبعاً: هل تنتظرون إلا فقراً منسياً أو غنى مطغيا أو مرضاً مفسداً أو هرماً مفندا أو موتاً مجهزاً، أو الدجال، فشرّ غائب ينتظر، أو الساعة، فالساعة أدهى وأمرّ) رواه الترمذي وقال حديث حسن.

فالاسلام بهذا قد «منح المنتمين إليه قدرات (إضافية) لتجاوزحيثيات الزمان والمكان والتحقق بالتوافق المنشود...

إنه بالسّلم ذي الدرجات العريضة الذي رسمه لهم، والذي يبدأ بالإسلام، وينتهي بالإحسان مروراً بالإيمان والتقوى شحذ طاقاتهم، وشدّ همتهم، ونفخ في روحهم، ودفعهم دفعاً إلى التجاوز والاختراق من أجل الوصول إلى القمة التي يطمح إليها كل منتم لهذا الدين؛ الإحسان، هنالك حيث التكشف الكامل والإبداع التام، والتقابل الذي لا يحجبه شيء بين الله والانسان... أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

إن الناس في الأعم الأغلب، يمشون إلى أهدافهم، أو يهرولون إليها، ولكننا نجد أناساً (يركضون)... لقد بعث الإسلام أجيالاً من العدائين الذين عرفوا كيف يحطمون الأرقام القياسية وهم يجتازون الموانع والمتاريس... ويقطعون المسافات الطوال»[1]

فإلى العمل والحركة... بل إلى المسارعة والمنافسة في ذالك...

واحذر التأخير والتسويف... فإنك قادم على ما خفي عليك علمه.. ﴿وما تدري نفس ماذا تكسب غداً﴾.

---

(١) حول إعادة تشكيل العقل المسلم، د. عماد الدين خليل، ص٣٠-٣١.